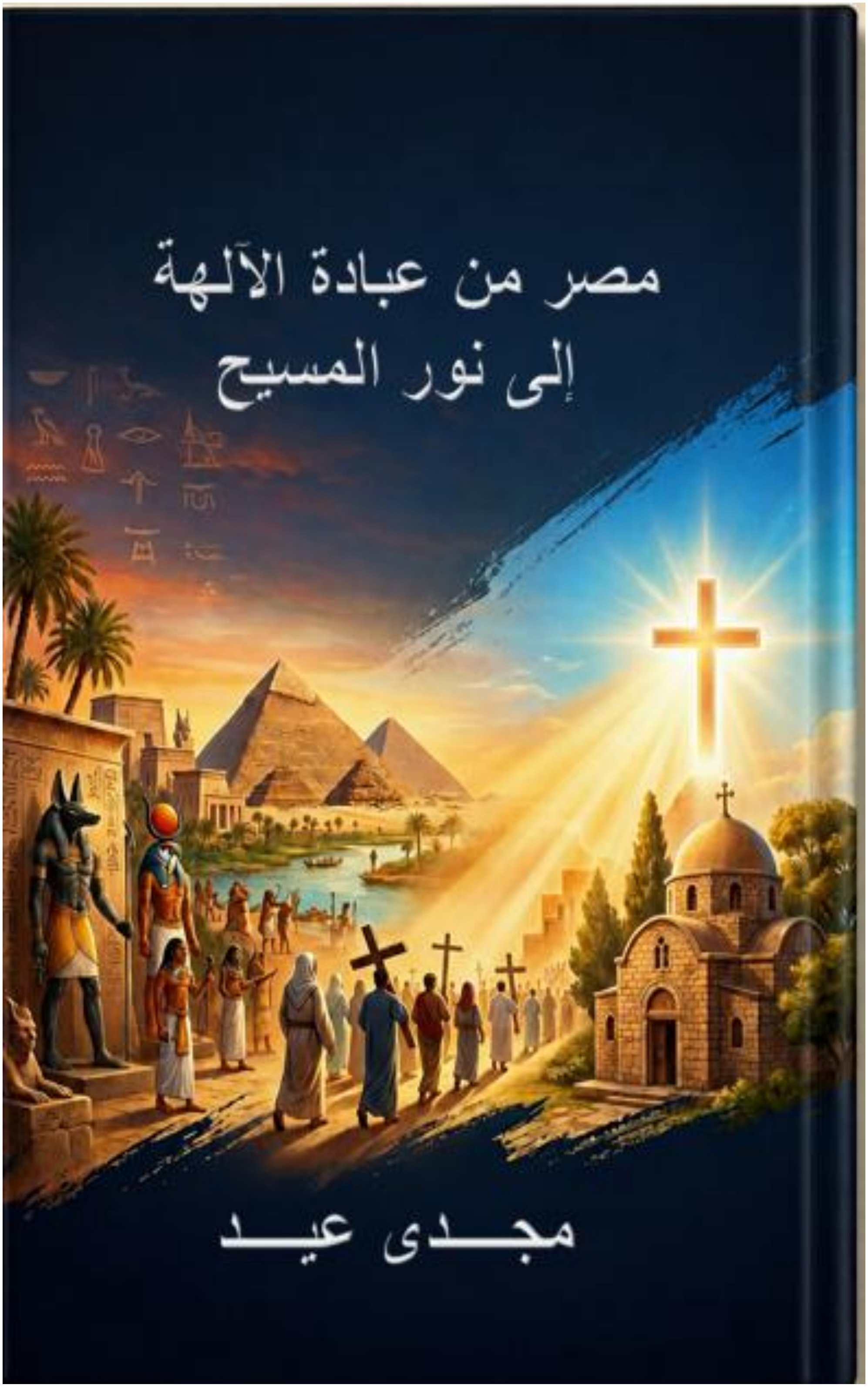

مصر من عبادة الآلهة
إلى نور المسيح
مجدى عيد

فهرس الكتاب

مصر من عبادة الآلهة إلى نور المسيح

مقدمة

تاريخ مصر ليس مجرد سجلٍّ لأحداث سياسية أو حضارية، بل هو مسيرة روحية عميقة تكشف عن بحث الإنسان المصري الدائم عن الله. منذ فجر التاريخ، كان المصريون شعبًا متدينًا بالفطرة، عاشوا بين المعابد والأسرار والأساطير، يبحثون عن الخلود والحياة بعد الموت. عبدوا آلهة كثيرة ورأوا في كل عنصر من عناصر الطبيعة قوة إلهية تُعلن عن الخالق المجهول. ومع مرور الزمن، امتلأت القلوب بالحنين إلى الإله الواحد الحقيقي الذي يفوق الآلهة المصنوعة بأيدي البشر

ومع الغزو المقدوني وبزوغ العهد البطلمي، دخلت إلى مصر الفلسفة اليونانية التي أيقظت العقل وأطلقت الفكر في البحث عن الحقيقة. وفي الإسكندرية، التقت الحكمة المصرية العريقة بالفكر اليوناني والعقيدة اليهودية، فتهيأت العقول والقلوب لاستقبال النور السماوي. كانت المدينة في ذلك الوقت منارة العالم، فيها المكتبة الكبرى ومدارس الفلسفة والعلم، وفيها وُلدت الترجمة السبعينية التي جعلت كلمة الله متاحة لكل الشعوب. هذا المزج بين الإيمان والعقل كان إعدادًا إلهيًا لظهور المسيحية في أرض النيل

لكن خلف هذا الازدهار الفكري كانت مصر تعاني من ظلم الحكم الروماني والضرائب القاسية والفراغ الروحي. فالشعب الذي عبد آلهة كثيرة فقد الإيمان بها، والشعب الذي درس الفلسفة اكتشف أن العقل وحده لا يخلّص الإنسان. وهكذا بدأ المصريون يشعرون بحاجة عميقة إلى خلاص روحي حقيقي، لا من فلسفة ولا من سلطان بشري، بل من الله ذاته

في هذا المناخ أرسل الله مارمرقس الرسول إلى مصر حوالي سنة 61 ميلادية حاملاً بشارة الحياة الجديدة في المسيح يسوع. دخل الإسكندرية البهية، والتقى أول المؤمنين أنانيوس الإسكافي، ومن بيته تأسست أول كنيسة مسيحية في إفريقيا. ومن هناك انطلقت الكرازة لتملأ البلاد نورًا. فآمن المصريون بالمسيح بقلوبهم لا بعقولهم فقط، لأنهم وجدوا فيه الإجابة على كل أسئلتهم القديمة من أين جئنا؟ ولماذا نحيا؟ وما مصيرنا بعد الموت؟

لكن هذا النور لم يُستقبل دون مقاومة. فقد واجهت الكنيسة الناشئة اضطهادات قاسية من الدولة الرومانية الوثنية التي رفضت الإيمان الجديد. ومع ذلك، صمد المؤمنون بقوة الروح القدس، وسالت دماء الشهداء في كل أرجاء البلاد حتى لقبت مصر بأرض الشهداء. تحوّل الألم إلى بركة، والموت إلى حياة، والدماء إلى بذار لإيمان لا يزول. ومن رحم الاضطهاد وُلدت الكنيسة القبطية التي صارت منارة للحق عبر العصور

ولأن الإيمان في مصر لم يكن عاطفة مؤقتة بل حياة كاملة، نشأت فيها مدرسة الإسكندرية اللاهوتية التي جمعت بين العقل والإيمان، وقدّمت للعالم آباءً عظامًا دافعوا عن العقيدة بعمق فكري وروحي. كما أصبحت الأديرة المصرية منارات للصلاة والتأمل والعطاء، تشهد أن مصر لم تفقد يومًا رسالتها الروحية

وهكذا نرى أن كل ما مرّ على مصر من تعدد الآلهة إلى الفلسفة الهيلينية، ومن الاضطهادات إلى الشهادة لم يكن صدفة بل إعدادًا إلهيًا دقيقًا لتكون هذه الأرض المقدسة مركزًا للمسيحية الأولى في العالم. ففيها لجأت العائلة المقدسة، ومنها انطلقت الكرازة إلى إفريقيا والعالم، وعلى ترابها سُفك دم الشهداء الذين حفظوا الإيمان حيًا حتى اليوم

هذا الكتاب هو رحلة عبر التاريخ الروحي لمصر قبل مجيء مارمرقس وبعده؛ رحلة تكشف كيف حوّل الله أرض الفراعنة إلى أرض القديسين، وكيف انتقل المصريون من ظلال المعابد الحجرية إلى نور الكنيسة الحيّة. إنه تاريخ خلاص أمة كاملة أعدّها الله بنفسه لتكون شاهدة للمسيح بين الأمم "مبارك شعبي مصر" (إشعياء 19:25)

مجــدى عيــد

الوضع الديني في مصر القديمة قبل المسيحية

كان الدين في مصر القديمة قبل مجيء مارمرقس الرسول نظامًا معقدًا ومتجذرًا في حياة الشعب المصري، امتد عبر آلاف السنين. لم يكن مجرد طقوس أو عبادات، بل كان جزءًا لا يتجزأ من السياسة، والثقافة، والهوية القومية للمصريين

1-الإيمان بتعدد الآلهة (تعددية دينية)

اعتمد المصريون القدماء على تعدد الآلهة، حيث كانت كل مدينة تقريبًا تمتلك إلهًا خاصًا بها يُعبد محليًا. ومن أبرز هذه الآلهة

.رع – إله الشمس، وكان يُعتبر الإله الأعلى الذي يمنح الحياة والنور

.أوزوريس – إله العالم الآخر والقيامة، يُمثل الأمل في الحياة بعد الموت

.إيزيس – إلهة الأمومة والسحر، رمز الحنان والرحمة

.حورس – إله السماء والحماية، يُرمز له بالصقر

.أنوبيس – إله التحنيط والمقابر

كانت هذه الآلهة تُعبد في معابد ضخمة، ولكل منها كهنة وطقوس خاصة. وكان الشعب يشارك في الأعياد الدينية التي تمجد هذه الآلهة وتطلب بركتها

2-العلاقة بين الدين والسلطة

كان الفرعون يُعتبر إلهًا حيًا أو ابن الإله رع. هذا المفهوم جعل الحكم في مصر ذا طبيعة دينية مطلقة، إذ كان الملك يرى نفسه وسيطًا بين الآلهة والشعب. ولذلك كانت الطاعة له واجبًا دينيًا بقدر ما هي سياسيًا

الكهنة أيضًا لعبوا دورًا قويًا في المجتمع؛ فقد كانوا الطبقة المثقفة التي تسيطر على المعرفة الدينية والعلمية مثل الفلك والطب والكتابة وبهذا الشكل، امتزجت السلطة الدينية بالمدنية

3-الإيمان بالخلود والحياة بعد الموت

اعتقد المصريون القدماء أن الإنسان لا يفنى بالموت، بل ينتقل إلى عالم آخر. لذلك اهتموا جدًا بعملية التحنيط لحفظ الجسد حتى تعود إليه الروح (البا) بعد القيامة. كما وضعوا نصوصًا دينية في المقابر مثل (كتاب الموتى) لتوجيه الروح في رحلتها إلى العالم الآخر

هذا المبدأ يوضح مدى ارتباط فكر المصريين بالبحث عن الحياة الأبدية، وهو ما مهّد نفسيًا وروحيًا لقبول رسالة القيامة التي جاء بها المسيح لاحقًا

4-تأثير الفكر اليوناني والروماني

بعد غزو الإسكندر الأكبر لمصر سنة 332 ق.م، دخلت الفلسفة اليونانية إلى الفكر المصري، فظهرت محاولات لدمج الآلهة المصرية بالآلهة اليونانية مثل عبادة سيرابيس (مزيج بين أوزوريس وزيوس). ومع دخول الحكم الروماني ازداد الانفتاح الديني، ولكن أيضًا زادت الحيرة الروحية بين الناس بسبب كثرة المعتقدات المتناقضة

5-التمهيد الروحي للمسيحية

في القرون الأخيرة قبل المسيحية، بدأ كثير من المصريين يشعرون بالفراغ الروحي نتيجة فساد الكهنة وتعدد المعبودات. كانت النفوس متعطشة لإله واحد حقيقي يعطي الخلاص والسلام الداخلي. لذلك عندما جاء مارمرقس برسالة المسيح عن الإله الواحد الذي أحب الإنسان وبذل نفسه لأجله، وجد القلوب مستعدة لقبول الحق

وهكذا يمكن القول إن الوضع الديني في مصر القديمة رغم تعدده كان يحمل بذور التهيئة لقبول نور الإنجيل لاحقًا

الديانات المصرية القديمة وآلهتها المتعددة

الديانة المصرية القديمة كانت منظومة دينية شديدة التعقيد والثراء، استمرت لآلاف السنين، وتطورت مع الزمن من عبادة ظواهر الطبيعة إلى نظام ديني منظم يقوم على تعدد الآلهة، حيث كان لكل إله وظيفة محددة ومجال

نفوذ خاص به. كانت الديانة المصرية انعكاسًا لطبيعة المصري القديم الذي عاش مرتبطًا بالأرض والنيل والشمس، فحوّل كل عنصر من عناصر الحياة إلى رمز إلهي

أولًا: فكرة الألوهية عند المصريين القدماء

لم يكن المصري القديم يرى الإله ككائن بعيد أو غامض، بل كقوة حاضرة في الكون وفي حياته اليومية. فالشمس التي تشرق وتغيب كانت بالنسبة له تجسد الإله رع، والنيل الذي يعطي الحياة كان يمثل نعمة الآلهة، والخصوبة في الأرض كانت عطية من إيزيس. لذلك كانت فكرة الألوهية عنده واقعية وتجريبية، تنبع من الطبيعة وتعبّر عن النظام الكوني الذي يراه حوله

لكن رغم هذا التعدد، كان هناك إدراك داخلي عند بعض الكهنة والمفكرين المصريين بوجود إله واحد خالق فوق جميع الآلهة، مصدر كل حياة. ويظهر هذا بوضوح في بعض النصوص الدينية القديمة مثل ترانيم إخناتون لإله الشمس (آتون)، التي اقتربت كثيرًا من فكرة التوحيد

ثانيًا: أهم الآلهة المصرية ووظائفها

تعددت الآلهة في مصر القديمة بحسب المناطق والمدن، فكانت كل مدينة تُكرم إلهها الخاص وتعتبره الأعظم. ومن أبرز هذه الآلهة

رع: إله الشمس والخالق الأعظم في نظر المصريين. كان يُعتقد أنه يبحر في السماء نهارًا في سفينة النور، وينزل إلى العالم السفلي ليلًا ليُجدد الحياة. رع هو مصدر النور والنظام والخلود

أوزوريس: إله الموتى والقيامة، رمز الحياة بعد الموت. قُتل على يد أخيه ست، ثم أعادته زوجته إيزيس للحياة أصبح أوزوريس سيد العالم الآخر، الذي يحكم على أرواح الموتى في قاعة العدالة

إيزيس: زوجة أوزوريس وأم حورس. رمز الأمومة والوفاء والسحر والحماية. كانت تُعبد كإلهة كونية تمنح الخصب والشفاء والحب، وقد انتشرت عبادتها خارج مصر حتى روما واليونان

حورس: ابن أوزوريس وإيزيس، إله السماء والحماية. يُرمز له بالصقر أو بعين حورس، التي أصبحت رمزًا للحماية والنصر. اعتبر المصريون الفرعون تجسيدًا لحورس على الأرض

ست: إله الفوضى والعواصف والشر، وهو عدو أوزوريس وحورس. مثّل قوى الظلام والاضطراب التي تهدد النظام الإلهي

أنوبيس: إله التحنيط والموتى، برأس ابن آوى. كان مسؤولًا عن وزن قلوب الموتى في محكمة أوزوريس لتحديد مصيرهم الأبدي

حتحور: إلهة الجمال والموسيقى والفرح والأمومة، وغالبًا ما تُصوّر كامرأة تحمل قرص الشمس بين قرني بقرة كانت ترمز للحنان الأنثوي والعطاء

تحوت (توت): إله الحكمة والكتابة والعلم. كان يُعتبر كاتب الآلهة الذي يسجل أحكام محكمة الموتى. يُرمز له بطائر أبو منجل أو قرد البابون

آمون: بدأ كإله محلي في طيبة، ثم صار الإله الأعلى لمصر كلها عندما توحد مع رع ليصبح (آمون–رع)، رب الأرباب وإله الكون الخفي الذي لا يُرى

بتاح: إله الخلق والفكر والإبداع، وكان يُعتقد أنه خلق الكون بالكلمة والفكر

ثالثًا: الأساطير الدينية الكبرى

الأساطير المصرية لم تكن مجرد قصص خيالية، بل كانت وسيلة لتفسير الظواهر الطبيعية والروحية وتنظيم المجتمع حول قيم معينة مثل النظام (ماعت) والخير والعدالة

أسطورة أوزوريس وإيزيس وحورس هي أشهرها، تحكي عن صراع الخير ضد الشر، والحياة ضد الموت، بعد أن قتل ست أخاه أوزوريس وقطّع جسده، جمعت إيزيس أشلاءه وأعادته إلى الحياة بمعونة أنوبيس، فأنجبت منه .حورس الذي انتصر لاحقًا على ست وأعاد النظام إلى الأرض

رابعًا: دور الكهنة والمعابد

المعابد كانت بمثابة بيوت الآلهة ، تُقام فيها الطقوس اليومية لتغذية الإله روحانيًا عبر القرابين والتعاويذ وكان الكهنة هم الوسطاء بين الشعب والآلهة، مسؤولين عن الطقوس والتعاليم والحسابات الفلكية والتقويم الزراعي ومع مرور الزمن، أصبحت طبقة الكهنة غنية جدًا وذات نفوذ كبير حتى نافست سلطة الفرعون نفسه

خامسًا: البحث عن الإله الواحد

رغم هذا التنوع الديني الكبير، إلا أن المصريين القدماء لم يجدوا فيه راحة روحية كاملة فمع تعدد الآلهة وتناقض الأساطير، بدأ يظهر ميل داخلي نحو الاعتقاد بوجود إله واحد أعلى من الجميع. هذا الميل بلغ ذروته في عصر إخناتون الذي دعا لعبادة إله واحد هو (آتون)، ولكن دعوته لم تدم طويلاً بعد موته

ومع مرور القرون ظل هذا التوق الروحي نحو الإله الواحد حيًّا في ضمير المصريين حتى جاء مارمرقس برسالة المسيح الإله الواحد الحقيقي الذي تجسد وقدم نفسه فداءً للبشر فوجدت الرسالة المسيحية أرضًا خصبة في مصر لأن الشعب كان مستعدًا لفهم الحق الإلهي الكامل

وهكذا كانت الديانة المصرية القديمة مرحلة تاريخية وروحية مهمة مهدت الطريق للمسيحية من خلال بحث الإنسان الدائم عن الإله الواحد الحق وسط كثرة المعبودات الزائفة

العلاقة بين الكهنة والسلطة الفرعونية في مصر القديمة

العلاقة بين الكهنة والسلطة الفرعونية كانت من أعقد العلاقات في تاريخ مصر القديمة، إذ لم تكن علاقة فصل بين الدين والدولة كما هو الحال في النظم الحديثة، بل كانت علاقة تداخل وتوازن دقيق بين السلطتين الدينية والسياسية فالدين كان الأساس الذي قامت عليه شرعية الحكم الفرعوني، والكهنة كانوا القوة الفكرية والروحية التي تُثبّت هذه الشرعية أو تُهددها

أولًا: الفرعون كإله حي

اعتقد المصريون القدماء أن الفرعون هو ابن الإله رع، أو تجسيد الإله حورس على الأرض، وأنه وحده الوسيط بين الآلهة والبشر، لذلك كانت طاعته واجبًا دينيًا، وليست فقط سياسيًا، وكان يُنظر إلى كل أوامره على أنها صادرة من الإرادة الإلهية

هذا المفهوم جعل من الفرعون رأس النظام الديني والروحي، فهو الذي يبني المعابد ويقدم القرابين باسم الشعب، ويُحافظ على النظام الكوني المعروف باسم (ماعت) أي الحق والعدل والتوازن، غير أن هذا الوضع جعل منه أيضًا مسؤولًا أمام الآلهة عن استقرار الكون والبلاد

ثانيًا: الكهنة كحُرّاس الدين والمعرفة

الكهنة كانوا طبقة خاصة من المجتمع، تتمتع بمكانة كبيرة وسلطة روحية واقتصادية ضخمة. لم يكن دورهم مقتصرًا على إقامة الطقوس الدينية، بل كانوا أيضًا علماء وفلكيين وأطباء وكُتابًا، فقد امتلكوا معرفة دقيقة بحركة النجوم والتقويم الزراعي والطب والتحنيط، مما جعلهم ضروريين للحياة اليومية في البلاد

كانت لهم مراتب مختلفة داخل المعابد، من الكاهن الأكبر إلى الكهنة الصغار والخدام. وكان الكاهن الأكبر يُعتبر الحاكم الروحي للمعبد ويمثل الإله أمام الناس. وكان يُختار بعناية شديدة ويُفرض عليه طهارة جسدية وروحية

ثالثًا: التوازن بين السلطتين الدينية والسياسية

في المراحل الأولى من التاريخ المصري، كانت العلاقة بين الفرعون والكهنة متوازنة؛ فالفرعون يحكم باسم الآلهة، والكهنة يدعمون سلطته ويضمنون استقرار البلاد عبر الطقوس الدينية فالدين كان هو الرابط الذي يوحد السلطة والشعب

لكن مع مرور الوقت، وخاصة خلال الدولة الحديثة (حوالي 1550–1070 ق.م)، بدأت قوة الكهنة تتعاظم خصوصًا في معابد آمون في طيبة فقد أصبح لهذه المعابد ثروات ضخمة وأراضٍ واسعة وعبيد ومخازن حبوب، حتى صارت دولة داخل الدولة وأصبح كهنة آمون ينافسون الفرعون في النفوذ والسلطة

في بعض الفترات كان الكاهن الأكبر لآمون يتمتع بسلطة فعلية تفوق سلطة الملك نفسه، مما أدى إلى صراعات داخلية بين القصر والمعابد، هذه الصراعات أضعفت وحدة الدولة وأدت أحيانًا إلى انقسامها بين سلطة دنيوية في الشمال وسلطة دينية في الجنوب

رابعًا: إخناتون ومحاولة كسر نفوذ الكهنة

في عهد الملك إخناتون (أمنحتب الرابع)، بلغ نفوذ كهنة آمون حدًا خطيرًا جعله يحاول التخلص من سلطتهم بإعلان عبادة إله واحد هو آتون، إله الشمس الظاهرة، أغلق معابد الآلهة الأخرى ونقل العاصمة إلى أخيتاتون

(تل العمارنة) كانت هذه الثورة الدينية محاولة لإعادة السيطرة الكاملة للفرعون على الدين وتحرير الحكم من قبضة الكهنة

لكن بعد وفاة إخناتون، انهارت ديانته الجديدة بسرعة، وعاد الكهنة بقوة لاستعادة مكانتهم، مما يدل على مدى عمق نفوذهم في المجتمع المصري

خامسًا: الجانب الاقتصادي للكهنوت

المعابد لم تكن مجرد أماكن عبادة بل كانت أيضًا مراكز اقتصادية ضخمة، كانت تمتلك أراضي زراعية وحيوانات ومخازن غلال ومصانع للنسيج والمعادن وكانت تُدار هذه الثروات بواسطة الكهنة الذين أصبحوا من أغنى طبقات المجتمع، هذا الثراء أعطاهم استقلالًا ماليًا عن القصر الملكي وزاد من قوتهم السياسية

سادسًا: النتائج الدينية والسياسية

العلاقة بين الفرعون والكهنة كانت علاقة شراكة متوترة فكل طرف يحتاج الآخر لكنه يخشاه أيضًا، الفرعون بحاجة للكهنة لتثبيت سلطته أمام الشعب باسم الدين، والكهنة بحاجة للفرعون لحماية المعابد وتوسيع نفوذهم هذا التوازن كان هشًّا للغاية، وغالبًا ما كان يؤدي إلى صراعات خفية بين الطرفين

ومع الزمن أدى هذا الارتباط الوثيق بين الدين والسياسة إلى فساد ديني كبير فقد أصبحت الطقوس شكلية والكهنة يسعون وراء المال والنفوذ أكثر من العبادة الحقيقية ومن هنا بدأ الشعب المصري يشعر بالفراغ الروحي والبحث عن الإله الواحد الحقيقي وهو ما مهد الطريق لقبول رسالة المسيح فيما بعد

سابعًا: التمهيد للمسيحية

حين جاء مارمرقس الرسول إلى الإسكندرية مبشرًا بالمسيح، وجد أرضًا مهيأة لقبول الحق الإلهي فقد تعب المصريون من كهنوت فاسد وسلطة دينية مستبدة ، كانت رسالة الإنجيل التي أعلنت أن الخلاص لا يأتي من كاهن أو فرعون بل من الله نفسه المتجسد في المسيح يسوع بمثابة التحرير الحقيقي للروح المصرية التي كانت أسيرة الطقوس والمظاهر

إذًا العلاقة بين الكهنة والسلطة الفرعونية كانت علاقة هيمنة متبادلة وصراع خفي على النفوذ، لكنها في النهاية كشفت عن حاجة الإنسان العميقة إلى إيمان صادق لا يقوم على مصالح بشرية بل على معرفة الله الحي

تأثير الفلسفة اليونانية بعد الغزو المقدوني على مصر

بعد دخول الإسكندر الأكبر إلى مصر سنة 332 قبل الميلاد، بدأت مرحلة جديدة تمامًا في التاريخ المصري تُعرف باسم العصر الهيليني أو العهد البطلمي، لم يكن الغزو المقدوني مجرد احتلال عسكري، بل كان بداية تفاعل فكري وثقافي عميق بين الحضارة المصرية العريقة والحضارة اليونانية الصاعدة، هذا التفاعل ترك أثرًا كبيرًا على الفكر الديني، والعلمي، والفلسفي في مصر، ومهّد الطريق لاحقًا لتقبّل المفاهيم الروحية التي حملتها المسيحية

أولًا: تأسيس الإسكندرية كمركز للفكر والفلسفة

أسس الإسكندر الأكبر مدينة الإسكندرية وجعلها عاصمة جديدة لمصر، فصارت من أعظم مراكز العلم والفكر في العالم القديم، بعد موته حكم خلفاؤه من أسرة البطالمة الذين عملوا على دمج الثقافة اليونانية بالمصرية

في الإسكندرية بُنيت المكتبة الكبرى التي كانت تضم مئات الآلاف من المخطوطات والكتب، وأُنشئ المتحف (أي بيت العلم)، حيث اجتمع العلماء والفلاسفة من كل أنحاء العالم لتبادل المعرفة في الفلك، والطب، والرياضيات، والمنطق، والدين

أصبحت الإسكندرية مركزًا عالميًا للفكر الفلسفي، وكان لها تأثير هائل على كل من الفكر اليهودي والمصري والمسيحي فيما بعد

ثانيًا: الفلسفة اليونانية وفهم الكون والإله

الفلسفة اليونانية التي دخلت مصر كانت تقوم على العقل والمنطق في تفسير الوجود. أبرز الفلاسفة الذين أثّروا في الفكر الإسكندري هم

.سقراط: دعا إلى معرفة النفس والبحث عن الحقيقة الأخلاقية

.أفلاطون: تحدث عن عالم المثل والروح الخالدة، ورأى أن العالم المادي انعكاس ناقص للعالم الروحي الكامل

.أرسطو: ركز على المنطق والتحليل العقلي والعلم التجريبي، وعلّم أن الله هو "المحرّك الأول" للكون

هذه الأفكار جعلت الناس ينتقلون من التفكير الأسطوري الذي ساد في الديانة المصرية القديمة إلى التفكير العقلي الفلسفي الذي يبحث عن أصل الكون وعلته الأولى. ومع مرور الوقت، بدأ البعض يدرك أن وراء تعدد الآلهة قوة واحدة عاقلة ومنظمة وهي فكرة اقتربت من مفهوم الإله الواحد الخالق

ثالثًا: التفاعل بين الفكر المصري واليوناني

حاول البطالمة توحيد الشعبين المصري واليوناني دينيًا وفكريًا، فقاموا بدمج بعض الآلهة المصرية باليونانية لتكوين آلهة جديدة مثل سيرابيس، الذي جمع صفات الإله المصري أوزوريس والإله اليوناني زيوس، كان الهدف من ذلك إيجاد ديانة مشتركة تجمع المصريين واليونانيين تحت رمز واحد

لكن هذا الدمج الديني والفلسفي لم يُشبع الجوع الروحي للناس، بل زاد من حيرتهم، فقد بدأ كثيرون يشعرون بأن تعدد المعبودات وتناقضها لا يمكن أن يعبر عن الإله الحقيقي الواحد الكامل، وهكذا تهيأت النفوس لاستقبال إعلان الله الكامل في المسيح لاحقًا

رابعًا: المدرسة الفلسفية في الإسكندرية

نشأت في الإسكندرية مدارس فلسفية كثيرة، من أبرزها المدرسة الأفلاطونية المحدثة التي حاولت الجمع بين الفكر الفلسفي والدين، كان فلاسفتها مثل بلوتينوس وفيلو الإسكندري يرون أن هناك إلهًا واحدًا أسمى لا يُدرك بالعقل البشري بل يُعرف بالنور الداخلي

فيلو اليهودي الإسكندري حاول التوفيق بين الفلسفة اليونانية والإيمان اليهودي

خامسًا: أثر الفلسفة اليونانية على المجتمع المصري

الفكر اليوناني غيّر طريقة تفكير المصريين في الدين والحياة والسياسة فبعد أن كان الدين المصري القديم يعتمد على الطقوس والرموز السحرية، أصبح الناس أكثر اهتمامًا بالبحث العقلي والأخلاقي، ظهرت طبقة جديدة من المثقفين والفلاسفة الذين يناقشون قضايا الخلق والروح والخير والشر

كما انتشرت مدارس التعليم التي تدرّس المنطق والفلك والهندسة والطب، وأصبح العلم وسيلة لمعرفة قوانين الطبيعة التي خلقها الله، هذا التقدم العلمي ساعد على رفع مستوى التفكير العام ومهّد لقبول مفهوم الوحي الإلهي والعقل الإيماني الذي جاءت به المسيحية

سادسًا: التمهيد الروحي للمسيحية

عندما جاء مارمرقس الرسول إلى مصر مبشرًا بالمسيح في القرن الأول الميلادي، وجد أرضًا خصبة للفكر والعقل فالمصريون واليونانيون المقيمون في الإسكندرية كانوا قد تعبوا من كثرة الفلسفات المتناقضة والديانات الهجينة ،كانوا يبحثون عن الحق المطلق الذي يجمع بين العقل والإيمان

الفلسفة اليونانية بعد الغزو المقدوني أحدثت ثورة فكرية في مصر القديمة فقد نقلت المصريين من عالم الأسطورة إلى عالم العقل والتأمل، وفتحت عقولهم لفكرة الإله الواحد الخالق ومع ذلك، لم تقدم لهم الخلاص ولا الراحة الروحية؛ لأنها اعتمدت على العقل وحده دون إعلان إلهي، لذلك جاء الإنجيل ليكمل ما عجزت عنه الفلسفة أن يقدّم الله نفسه للإنسان في شخص يسوع المسيح

العهد البطلمي وانتشار الثقافة الهيلينية في الإسكندرية

بدأ العهد البطلمي في مصر بعد وفاة الإسكندر الأكبر سنة 323 قبل الميلاد، عندما تولى أحد قواده ويدعى بطليموس الأول سوتر حكم البلاد ، استمر حكم البطالمة قرابة ثلاثة قرون (من 323 إلى 30 ق.م)، وكان من أهم الفترات التي شهدت فيها مصر تحولًا ثقافيًا عميقًا نتيجة امتزاج الحضارة المصرية القديمة بالثقافة اليونانية المعروفة باسم الهيلينية

أولًا: معنى الثقافة الهيلينية

كلمة هيلينية مشتقة من اسم هيلين الذي كان يطلقه اليونانيون على أنفسهم، وهي تشير إلى نشر الفكر والعادات واللغة اليونانية في البلاد التي فتحها الإسكندر، كانت هذه الثقافة مزيجًا من الفكر اليوناني العقلاني والروح الشرقية القديمة، وقد حاول البطالمة تطبيق هذا النموذج في مصر، فخلقوا مجتمعًا جديدًا يجمع بين العقلانية اليونانية والعراقة المصرية

ثانيًا: الإسكندرية عاصمة الفكر والعلم

اختار بطليموس الأول مدينة الإسكندرية لتكون عاصمة لمصر الجديدة، وجعلها مركزًا للثقافة الهيلينية في العالم وبنى فيها مؤسسات علمية وفكرية ضخمة، مثل

المكتبة الكبرى: التي كانت تضم مئات الآلاف من المخطوطات والكتب من كل أنحاء العالم القديم، وجُمعت فيها علوم الفلك، والفلسفة، والطب، والهندسة، والأدب

.المتحف (الموسيون): وهو أشبه بجامعة ومجمع علمي يجتمع فيه العلماء والفلاسفة والباحثون للدراسة والبحث

في هذه المدينة، التقت الثقافات الثلاث الكبرى: المصرية القديمة، واليونانية، واليهودية. وأصبحت الإسكندرية بوتقة فكرية أنتجت مدارس فلسفية ولاهوتية عظيمة

ثالثًا: اللغة اليونانية وتأثيرها الثقافي

أصبحت اللغة اليونانية اللغة الرسمية في الإدارة والتعليم والتجارة، وبدأ المصريون المتعلمون يتحدثون بها إلى جانب لغتهم الأصلية، هذا الانتشار للغة ساعد على نشر الفكر الفلسفي والعلمي، كما جعل الإسكندرية مركزًا للتواصل الفكري بين الشرق والغرب

وفي هذا المناخ ظهرت الترجمة الشهيرة للعهد القديم إلى اليونانية المعروفة باسم (الترجمة السبعينية)، التي تمت في القرن الثالث قبل الميلاد بأمر من بطليموس الثاني، هذه الترجمة كانت حدثًا تاريخيًا لأنها جعلت كلمة الله متاحة لغير اليهود، ومهّدت الطريق لانتشار رسالة الإنجيل لاحقًا بين الأمم

رابعًا: الدمج الديني والثقافي بين مصر واليونان

عمل البطالمة على توحيد الشعبين المصري واليوناني دينيًا لإرساء الاستقرار السياسي فقاموا بدمج بعض الآلهة المصرية مع الآلهة اليونانية لتشكيل رموز جديدة مثل الإله سيرابيس، الذي جمع صفات أوزوريس المصري وزيوس اليوناني، وكان الهدف من ذلك إيجاد ديانة واحدة تجمع المصريين واليونانيين تحت راية واحدة

لكن هذا الدمج لم يُنتج إيمانًا حقيقيًا، بل خلق حالة من التناقض الروحي بين الموروث المصري العميق والإطار الفلسفي الهيليني العقلي ومع مرور الوقت، شعر الناس بأنهم بحاجة إلى إله واحد حيّ وليس رموزًا مركّبة أو فلسفات بشرية

خامسًا: الحياة الفكرية والفلسفية في الإسكندرية

كانت الإسكندرية في العهد البطلمي مركزًا للفلسفة والعلم على مستوى العالم، اجتمع فيها علماء كبار مثل إقليدس (مؤسس الهندسة الحديثة) وأرشميدس وإراتوستينس، كما ازدهرت فيها مدارس فلسفية مثل المدرسة الأفلاطونية المحدثة التي سعت إلى التوفيق بين الدين والفكر العقلي

هذه البيئة الفكرية هي التي أنجبت لاحقًا مدرسة الإسكندرية اللاهوتية المسيحية، التي استخدمت المنهج الفلسفي لتفسير الكتاب المقدس والدفاع عن الإيمان المسيحي ضد الفلسفات الوثنية

سادسًا: المجتمع السكندري وتعدد الثقافات

كانت الإسكندرية مدينة متعددة الأعراق والثقافات، عاش فيها المصريون واليونانيون واليهود جنبًا إلى جنب. هذا التنوع خلق حوارًا دائمًا حول الدين والحكمة والمعرفة ومع ذلك، أدى أيضًا إلى صراعات فكرية ودينية، خاصة عندما بدأت الديانات المختلفة تتنافس على النفوذ

في هذا الجو الفكري المشحون، كانت النفوس متعطشة للحقيقة المطلقة، لذلك عندما جاء مارمرقس الرسول إلى الإسكندرية مبشرًا بالمسيح في القرن الأول الميلادي، وجد أرضًا خصبة لقبول الحق الإلهي؛ لأن الناس كانوا قد تعبوا من الفلسفات البشرية والتوفيقات الدينية الزائفة

سابعًا: نهاية العهد البطلمي وبداية التحول الروحي

انتهى العهد البطلمي بسقوط كليوباترا السابعة سنة 30 ق.م ودخول الرومان إلى مصر، ومع ذلك ظل تأثير الثقافة الهيلينية قويًا في الفكر المصري لقرون طويلة، حتى بعد دخول المسيحية، فقد ساعدت هذه الثقافة على إعداد العقل المصري لفهم المفاهيم اللاهوتية التي حملها الإنجيل

العهد البطلمي كان مرحلة انتقالية في تاريخ مصر مرحلة جمعت بين التراث المصري القديم والفكر اليوناني العقلي، لقد غيّرت الثقافة الهيلينية طريقة تفكير المصريين وأعدّت عقولهم لاستقبال نور المسيح الذي أعلن أن الحقيقة ليست فكرة فلسفية بل شخص الله الحي المتجسد

وجود الجالية اليهودية في الإسكندرية ودورها الديني والفكري

كان وجود الجالية اليهودية في مدينة الإسكندرية أحد أهم العوامل التي أثرت في الحياة الدينية والفكرية في مصر قبل دخول المسيحية، فقد كانت هذه الجالية جسرًا بين الفكر العبري القديم والفلسفة اليونانية، ومهّدت الطريق أمام استقبال رسالة الإنجيل لاحقًا

أولًا: خلفية تاريخية لوجود اليهود في مصر

وجود اليهود في مصر لم يبدأ مع البطالمة فقط، بل له جذور قديمة تعود إلى أيام يوسف الصديق الذي جاء إلى مصر في زمن المجاعة وجلب معه عائلته، ومع مرور القرون، عاد اليهود إلى مصر في فترات مختلفة من التاريخ هربًا من الاضطهادات أو بحثًا عن الرزق

لكن الوجود الكبير المنظم بدأ بعد دخول الإسكندر الأكبر إلى مصر سنة 332 ق.م، حيث سمح لليهود بالاستقرار في المدينة الجديدة ومنحهم حقوقًا متساوية مع اليونانيين والمصريين، في عهد البطالمة، ازدهرت الجالية اليهودية وأصبحت واحدة من أكبر جاليات اليهود خارج فلسطين

ثانيًا: مكانة الجالية اليهودية في المجتمع السكندري

أقام اليهود في الإسكندرية أحياءً خاصة بهم، أبرزها الحي الشرقي الذي كان يُعرف باسم الحي اليهودي، وقد تمتعوا بحقوق المواطنة الكاملة، وكان لهم ممثل رسمي لدى الحكومة يسمى (الألخسندارخوس) (رئيس الجالية)

مارسوا التجارة والصناعة والتعليم، وشاركوا في الحياة الثقافية والفكرية للمدينة، وكانوا يجمعون بين الالتزام بالشريعة اليهودية والانفتاح على الثقافة اليونانية المحيطة بهم

ثالثًا: الترجمة السبعينية للعهد القديم

من أعظم إنجازات الجالية اليهودية في الإسكندرية هو الترجمة السبعينية، وهي ترجمة العهد القديم من العبرية إلى اليونانية، تمت هذه الترجمة في عهد بطليموس الثاني (فيلادلفوس) حوالي سنة 285 ق.م

بحسب التقليد اليهودي، دُعي اثنان وسبعون عالمًا من أورشليم لترجمة الكتاب المقدس، فأنجزوا العمل خلال سبعين يومًا، ومن هنا جاء اسمها السبعينية، كانت هذه الترجمة حدثًا تاريخيًا لأنها

.جعلت كلمة الله متاحة لليهود الذين لم يعودوا يتحدثون العبرية بل اليونانية

.فتحت الباب أمام الأمم غير اليهودية للتعرف على الوحي الإلهي للمرة الأولى

.مهّدت الطريق لفهم النبوات المسيانية التي تحققت لاحقًا في شخص المسيح

وقد استخدم الرسل والمبشرون المسيحيون فيما بعد هذه الترجمة السبعينية في الكرازة بالإنجيل، لأنها كانت معروفة في العالم الهيليني كله وكلمة هيلين، هو الاسم الذي أطلقه اليونانيون على أنفسهم

رابعًا: الفكر اليهودي والفلسفة اليونانية

في الإسكندرية نشأ تيار جديد من الفكر الديني حاول التوفيق بين الإيمان اليهودي والعقل الفلسفي اليوناني. كان أبرز ممثليه فيلو الإسكندري (حوالي 50 ق.م – 20 م)، وهو فيلسوف يهودي استخدم المفاهيم الفلسفية لتفسير الكتاب المقدس بطريقة رمزية

خامسًا: الحياة الدينية لليهود في الإسكندرية

كان للجالية اليهودية نظام ديني متكامل يشمل المجامع (الكنس) التي تُقام فيها الصلاة وقراءة التوراة والتعليم الديني، وقد ذكر المؤرخ يوسيفوس فلافيوس أن مجمع الإسكندرية كان من أكبر المجامع اليهودية في العالم، يسع عشرات الآلاف من المصلين

و هو مؤرخ يهودي من القرن الأول الميلادي (ولد حوالي سنة 37 م وتوفي نحو سنة 100 م)

كما احتفظ اليهود بعاداتهم وشريعتهم مثل الختان، والسبت، والأعياد المقدسة، ولكنهم تأثروا أيضًا بالفكر الفلسفي الذي شجع على التأمل الروحي والعقلي في الله بدلاً من الطقوس الخارجية فقط

سادسًا: الصراعات الدينية والاجتماعية

رغم ازدهار الجالية اليهودية، إلا أنها واجهت أحيانًا توترات مع المصريين واليونانيين بسبب الاختلافات الدينية والاجتماعية، ففي بعض الفترات حدثت اضطرابات بين الطوائف الثلاث خاصة عندما اتُّهم اليهود بالانعزال ورفض عبادة آلهة المدينة

لكن هذه الصراعات ساعدت على بلورة الهوية الدينية لليهود وتقوية إيمانهم بالله الواحد وسط بيئة وثنية متعددة الآلهة

الترجمة السبعينية للعهد القديم وتأثيرها في الفكر الديني

تُعد الترجمة السبعينية من أعظم إنجازات التاريخ الديني والثقافي، لأنها لم تكن مجرد نقل للنص المقدس من لغة إلى أخرى، بل كانت حدثًا روحيًا وفكريًا عالميًا غيّر مسار الفكر الديني في العالم القديم، ومهّد الطريق لانتشار المسيحية بين الأمم

أولًا: خلفية تاريخية للترجمة السبعينية

بعد أن دخل الإسكندر الأكبر مصر سنة 332 ق.م، أصبحت الإسكندرية مركزًا ثقافيًا عالميًا تحت حكم البطالمة، وفي عهد الملك بطليموس الثاني فيلادلفوس (285–246 ق.م)، ازدهرت فيها الجالية اليهودية التي كانت تتحدث اليونانية أكثر من العبرية

أراد الملك أن يضيف التوراة إلى مكتبته الشهيرة، فطلب من رئيس الكهنة في أورشليم إرسال علماء لترجمة الأسفار المقدسة إلى اليونانية، أرسل إليه اثنين وسبعين عالمًا من اليهود (ستة من كل سبط)، فأنجزوا الترجمة في حوالي سبعين يومًا، ومن هنا جاء اسمها السبعينية

ثانيًا: أهمية الترجمة السبعينية

كانت هذه الترجمة حدثًا محوريًا في التاريخ لأنها جعلت كلمة الله متاحة لشعوب كثيرة خارج حدود الأمة اليهودية، فبعد أن كانت الأسفار المقدسة تُقرأ فقط بالعبرية داخل المجامع اليهودية، أصبحت الآن مفهومة لليونانيين والمصريين واليهود المتحدثين باليونانية

وبهذا تحولت السبعينية إلى جسر بين الشرق والغرب، بين الإيمان العبري القديم والفكر الهيليني الفلسفي

ثالثًا: تأثيرها في الفكر الديني اليهودي

أثرت الترجمة السبعينية بعمق في الفكر الديني اليهودي في الشتات، خصوصًا في الإسكندرية. فقد ساعدت اليهود على الاحتفاظ بهويتهم الدينية رغم اندماجهم في الثقافة اليونانية المحيطة بهم، كما ساعدت على ظهور تيار جديد من الفكر الديني يعتمد على التفسير الرمزي والفلسفي للنصوص المقدسة

أبرز مثال على ذلك هو الفيلسوف اليهودي فيلو الإسكندري الذي استخدم الترجمة السبعينية لتفسير الكتاب المقدس بلغة فلسفية يونانية

رابعًا: تأثيرها في الفكر المسيحي

عندما بدأت الكرازة بالمسيح في القرن الأول الميلادي، كانت الترجمة السبعينية هي النسخة المعروفة والمستخدمة في العالم الهيليني كله، لذلك استخدمها الرسل والآباء الأوائل في تعليمهم وكرازتهم، معظم الاقتباسات التي وردت في العهد الجديد من العهد القديم مأخوذة من هذه الترجمة

خامسًا: تأثيرها في الفكر الفلسفي والديني العام

في العالم الهيليني، كانت الفلسفة تبحث عن الحقيقة المطلقة وعن العقل الكوني الذي يحكم الكون، وعندما ظهرت الترجمة السبعينية، وجد الفلاسفة فيها إعلانًا لإله واحد خالق الكون، عاقل ومحب وعادل، يختلف تمامًا عن آلهة الأساطير الوثنية

هذا اللقاء بين الفكر الفلسفي والعقيدة الإيمانية أنتج تيارًا فكريًا جديدًا جمع بين الإيمان والعقل، وقد ساعد هذا المناخ على فهم المفاهيم اللاهوتية المسيحية لاحقًا مثل الكلمة، والنعمة والحق، التي وردت كلها بلغة يونانية مستوحاة من نصوص السبعينية

سادسًا: أثرها في الكنيسة القبطية والمصرية

حين جاء مارمرقس الرسول إلى الإسكندرية مبشرًا بالمسيح، وجد أن كثيرين من اليهود والمثقفين يعرفون الأسفار المقدسة من خلال الترجمة السبعينية، لأن الناس كانوا على دراية بالنصوص التي تتحدث عن المسيا المنتظر

ومن هنا أصبحت الترجمة السبعينية الأساس الذي اعتمدت عليه الكنيسة القبطية في عبادتها وتراثها الكتابي حتى اليوم، وهي النسخة التي تُستخدم في الترجمات القبطية والعربية القديمة للعهد القديم

سابعًا: القيمة اللاهوتية للترجمة السبعينية

الترجمة السبعينية ليست مجرد نقل لغوي بل عمل إلهي بإرشاد الروح القدس، فقد حفظت النصوص الأصلية من التحريف، ونقلت المعاني الروحية بعمق ودقة جعلت الكنيسة الأولى تعتبرها النص الموحى به

وقد أكد الآباء مثل القديس أثناسيوس الرسولي والقديس كيرلس الكبير اعتمادهم على نص السبعينية في تفسير الكتاب المقدس والدفاع عن العقيدة ضد الهرطقات

كانت الترجمة السبعينية خطوة إلهية عظيمة مهدت الطريق للمسيحية، فقد نقلت نور الوحي الإلهي من حدود الأمة اليهودية إلى كل الأمم، ومن خلالها تعرّف العالم اليوناني والمصري على الإله الواحد الحقيقي وعلى النبوات التي تحققت في المسيح يسوع

وهكذا يمكن القول إن السبعينية لم تكن مجرد ترجمة بل جسر الخلاص الفكري والروحي الذي عبر عليه العالم القديم نحو نور الإنجيل

الوضع السياسي والاجتماعي في مصر تحت الحكم الروماني

بدأ الحكم الروماني في مصر بعد سقوط الدولة البطلمية سنة 30 قبل الميلاد، عندما انتحرت كليوباترا السابعة وهُزم أنطونيوس أمام الإمبراطور أوكتافيوس (أغسطس) ومنذ ذلك الوقت أصبحت مصر ولاية رومانية خاضعة مباشرة للإمبراطور نفسه، لا لمجلس الشيوخ، بسبب أهميتها الاقتصادية والاستراتيجية الكبرى

كان هذا التحول السياسي بداية عهد جديد في تاريخ مصر ، عهد اتسم بالسيطرة الأجنبية الصارمة، والضرائب الثقيلة، والتفاوت الاجتماعي الكبير

أولًا: الوضع السياسي

جعل الرومان من مصر إقليمًا إمبراطوريًا خاصًا، وأداروه كخزانة غلال للإمبراطورية، كانت مصر تُعتبر ملكًا خاصًا للإمبراطور، ولذلك لم يُسمح لأي عضو من مجلس الشيوخ الروماني بدخولها دون إذن مباشر من القيصر كان الحاكم الروماني يُلقّب بالوالي (البريفكت)، وهو ممثل مباشر للإمبراطور

وكانت الإسكندرية عاصمة الولاية ومقر الحاكم والإدارة، من هناك تُدار شؤون البلاد كلها، أما الجيش الروماني فكان منتشراً في المدن الكبرى لضمان الأمن وجمع الضرائب وقمع أي ثورات

ثانيًا: الإدارة والضرائب

اعتمد الرومان على نظام إداري صارم ودقيق، قُسّمت مصر إلى أقاليم، ولكل إقليم حاكم تابع للوالي، كانت مهمة الدولة الأساسية هي ضمان تدفق الغلال والضرائب إلى روما، لذلك فُرضت على الفلاحين ضرائب ثقيلة على الأرض والمحاصيل والحيوانات وحتى الأشخاص

كما أُجبر كثير من المصريين على العمل في مشروعات الدولة أو الخدمة العسكرية دون مقابل كنوع من الضرائب العينية، هذا الضغط الاقتصادي أدى إلى معاناة شديدة بين الطبقات الفقيرة، بينما ازدهرت طبقة صغيرة من الأغنياء والمسؤولين الرومان والمصريين المتعاونين معهم

ثالثًا: الوضع الاجتماعي

كان المجتمع المصري في العهد الروماني منقسمًا بوضوح إلى طبقات

.الطبقة العليا: وتتكون من الحكام الرومان والإغريق (اليونانيون) الأثرياء والمصريين الذين خدموا الإدارة الرومانية

.الطبقة الوسطى: وتشمل التجار والحرفيين والمثقفين في المدن الكبرى مثل الإسكندرية

.الطبقة الدنيا: وهم الفلاحون والعمال الذين كانوا يعانون من الفقر والضرائب والعمل القسري

في الريف كانت الحياة قاسية للغاية، بينما المدن الكبرى تمتعت بشيء من الرفاهية بفضل التجارة والثقافة الهيلينية، ومع ذلك سادت حالة من الظلم الاجتماعي وانعدام العدالة بين الطبقات

رابعًا: الوضع الديني والفكري

في ظل الحكم الروماني استمر تنوع الأديان في مصر، فكان هناك المصريون الذين يعبدون آلهتهم القديمة (رع، إيزيس، أوزوريس)، واليونانيون الذين يعبدون آلهة الأوليمبوس، والرومان الذين عبدوا الإمبراطور نفسه كإله، كما كانت هناك جالية يهودية ضخمة في الإسكندرية تمارس عبادتها بحرية نسبية

هذا التعدد الديني أدى إلى نوع من الحيرة الروحية، كان الناس يشعرون بفراغ داخلي رغم كثرة الطقوس والمعابد فمع مرور الوقت ضعفت الثقة في الآلهة الوثنية بعد أن فشلت في تقديم معنى حقيقي للحياة أو خلاص للنفس

خامسًا: الإسكندرية مركز الفكر والدين

الإسكندرية ظلت القلب النابض لمصر خلال الحكم الروماني، كانت مدينة عالمية يجتمع فيها المصريون واليونانيون والرومان واليهود ، وفيها تلاقت الفلسفة اليونانية مع الإيمان اليهودي والفكر المصري القديم

في هذا الجو الفكري الغني، ظهرت مدارس فلسفية ولاهوتية كثيرة

سادسًا: الاضطهادات والبحث عن الخلاص

كان الرومان يقدسون الإمبراطور ويعتبرونه إلهًا يجب أن تُقدَّم له الذبائح، لذلك عندما ظهرت المسيحية وأعلنت أن يسوع وحده هو الرب والإله الحقيقي، اصطدمت مباشرة بسلطة الدولة الرومانية، لكن هذا حدث لاحقًا بعد أن انتشرت المسيحية في مصر على يد مارمرقس

خلال القرن الأول الميلادي كانت النفوس المصرية قد أنهكتها الضرائب والاستعباد والظلم، فكانت متعطشة لرسالة الخلاص والحرية الداخلية التي أعلنها الإنجيل

سابعًا: التمهيد للمسيحية

كل العوامل السياسية والاجتماعية في العصر الروماني ، القهر، الفقر، الانقسام الطبقي، والانهيار الروحي كانت بمثابة تمهيد إلهي لدخول نور المسيح إلى مصر

وعندما دخل مارمرقس إلى الإسكندرية حوالي سنة 61 م مبشرًا بالمسيح، وجد قلوب المصريين مفتوحة ومستعدة لقبول الإيمان الجديد الذي جاء يحمل رسالة الحرية الروحية والخلاص الأبدي

الحكم الروماني لمصر رغم قسوته كان مرحلة إعداد إلهي عظيمة، فقد كشف للإنسان المصري زيف السلطة البشرية والديانات الوثنية، وولّد فيه شوقًا عميقًا للحق الإلهي وهكذا تحولت أرض الاضطهاد إلى أرض القداسة والشهادة حين دخلها نور الإنجيل على يد مارمرقس الرسول

الاضطهادات الدينية والبحث عن الخلاص الروحي في مصر قبل المسيحية

في القرون التي سبقت دخول مارمرقس الرسول إلى مصر، كانت البلاد تمرّ بفترة من الاضطراب الروحي العميق، نتيجة الاضطهادات الدينية والظلم الاجتماعي الذي فرضه الحكام الأجانب، سواء في العهد البطلمي أو الروماني. هذا الواقع القاسي جعل المصريين يعيشون حالة من العطش الروحي والبحث عن خلاص حقيقي لا يأتي من البشر ولا من الآلهة الوثنية

أولًا: جذور الاضطهاد الديني في مصر القديمة

الديانة المصرية القديمة كانت مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالسلطة السياسية، فالفرعون كان يُعتبر إلهًا حيًا أو ابن الإله رع، لذلك كان أي تمرد ديني يُعد تمردًا سياسيًا أيضًا، الكهنة كانوا يسيطرون على المعابد والشعب باسم الآلهة، ومن يعارضهم يُعاقب بقسوة

عندما حاول الملك إخناتون أن يعلن عبادة الإله الواحد (آتون) في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، واجه مقاومة شرسة من كهنة آمون الذين رأوا في دعوته خطرًا على نفوذهم، وبعد موته أُزيلت آثاره وأُعيدت عبادة الآلهة القديمة، هذه الحادثة تركت جرحًا عميقًا في الوعي المصري، وأظهرت كيف يمكن للدين أن يُستخدم كأداة للسلطة وليس وسيلة للحق

ثانيًا: الوضع الديني في العهد البطلمي والروماني

العهد البطلمي هو الفترة التاريخية التي حكم فيها البطالمة مصر (وهم أسرة يونانية من مقدونيا) بعد وفاة الإسكندر الأكبر

في العهد البطلمي (من 323 إلى 30 ق.م) ثم الروماني (من 30 ق.م فصاعدًا)، ازداد الوضع تعقيدًا، فقد اختلطت الآلهة المصرية باليونانية والرومانية في محاولة لخلق وحدة دينية بين الشعوب، فظهرت ديانات هجينة مثل عبادة سيرابيس وإيزيس العالمية

لكن هذه الديانات لم تقدم للناس سوى طقوس شكلية خالية من المعنى الروحي الحقيقي، كانت المعابد مليئة بالكهنة الأثرياء الذين يعيشون على حساب الشعب، بينما الفقراء يبحثون عن إله يسمعهم ويشفق عليهم، فبدأ كثير من المصريين يشعرون بأن الآلهة صامتة وأن العبادة فقدت روحها

ثالثًا: عبادة الإمبراطور والاضطهاد الفكري

في العهد الروماني فُرضت عبادة الإمبراطور كإله رسمي للدولة، كان على كل مواطن أن يقدم البخور أمام تمثال القيصر كعلامة ولاء سياسي وديني، ومن يرفض يُتهم بالعصيان ويُعاقب بقسوة

كان هذا النظام عبئًا على الضمير الإنساني، إذ شعر كثيرون أن تأليه البشر هو إهانة للعقل والروح، وهكذا بدأ الناس يبحثون عن الإله الحقيقي الذي لا يموت ولا يظلم ولا يستعبدهم

رابعًا: الحركات الدينية والفكرية الباحثة عن الخلاص

في ظل هذا القهر الروحي، ظهرت حركات دينية وفلسفية متعددة تبحث عن الخلاص الداخلي

ظهرت الديانات الغامضة مثل عبادة إيزيس وسيرابيس وديونيسيوس، التي وعدت أتباعها بالحياة بعد الموت، ظهرت لكنها ظلت رمزية بلا قوة حقيقية لتغيير القلب

.الفلسفة الرواقية والأفلاطونية التي علّمت ضبط النفس وسمو الروح، لكنها لم تقدم طريقًا للخلاص من الخطية

اليهودية الهيلينية: التي حاولت التوفيق بين الشريعة اليهودية والفكر اليوناني، وقدّمت صورة عن الإله الواحد الذي خلق الكون ويحكمه بالعدل

كل هذه التيارات كشفت عن شوق الإنسان العميق إلى الإله الواحد الحق الذي يمنح الغفران والسلام الداخلي. كان العالم كله ينتظر النور الحقيقي الذي يبدد ظلمة الوثنية والعقل البشري المحدود

خامسًا: الحالة الاجتماعية والنفسية للمصريين

تحت الحكم الروماني، عانى المصريون من الفقر والضرائب والعمل القسري. كانت الطبقة الغنية تتمتع بالترف والسلطة، بينما يعيش الفلاحون في البؤس. هذا الظلم الاجتماعي ولّد إحساسًا عامًا باليأس وفقدان العدالة

سادسًا: التمهيد لدخول المسيحية

حين جاء مارمرقس الرسول إلى الإسكندرية حوالي سنة 61 ميلادية، وجد شعبًا متعبًا روحيًا وجسديًا، كان المصريون قد جربوا كل أشكال العبادة والفلسفة دون أن يجدوا الراحة، لذلك عندما سمعوا عن المسيح الإله الذي أحب الإنسان وبذل نفسه لأجله تجاوبوا بسرعة لأنهم وجدوا فيه الجواب الذي طالما بحثوا عنه

لقد أعلن مارمرقس أن الخلاص لا يأتي من معابد ولا كهنة ولا فلسفة بشرية، بل من المسيح الذي مات وقام ليمنح الحياة الأبدية لكل من يؤمن به

سابعًا: من الاضطهاد إلى الشهادة

بعد انتشار المسيحية في مصر، واجه المؤمنون اضطهادات جديدة من السلطات الرومانية الوثنية، لكن هذه المرة لم تكن اضطهادات بسبب بحث عن الحقيقة بل بسبب تمسكهم بها، ومع ذلك، لم يستسلموا بل صار دم الشهداء بذار الكنيسة

وهكذا تحولت مصر من أرض الاضطهاد إلى أرض الإيمان والشهادة، وصارت الكنيسة القبطية تُعرف بأنها (كنيسة الشهداء)

إن الاضطهادات الدينية التي عاشتها مصر قبل المسيحية لم تكن نهاية الطريق بل كانت جزءًا من خطة الله لإعداد القلوب لقبول الحق، فقد علّمت المصريين أن الإنسان لا يجد راحته في القوة أو المال أو الطقوس، بل في معرفة الله الحي الذي أحبهم وأرسل ابنه ليخلّصهم، ومن رحم الألم وُلد الإيمان الحقيقي بالمسيح يسوع رب الحياة

التمهيد الروحي والفكري لمجيء مارمرقس إلى مصر

لم يكن دخول مارمرقس الرسول إلى مصر حدثًا عشوائيًا أو مجرد مبادرة بشرية، بل كان ثمرة إعداد إلهي طويل عبر قرون من التاريخ الديني والفكري، فقد هيأ الله أرض مصر شعبًا وثقافةً وفكرًا لتكون مستعدة لقبول نور الإنجيل، هذا التمهيد تمّ على مستويين متكاملين روحي وفكري

أولًا: التمهيد الروحي (عطش الإنسان المصري إلى الإله الواحد)

1-تجربة التعدد الديني والفراغ الروحي

عبر آلاف السنين عاش المصريون في ظل عبادة آلهة كثيرة تمثل قوى الطبيعة والحياة والموت، كانت هذه الديانات غنية بالطقوس والأساطير لكنها خالية من الخلاص الحقيقي، ومع مرور الوقت بدأ الناس يشعرون بأن هذه الآلهة لا تملك سلطانًا على قلوبهم ولا تمنحهم راحة من الخوف أو الخطية.

حتى الكهنة الذين كانوا يسيطرون على المعابد فقدوا روح التقوى، فصار الدين وسيلة للنفوذ والمال لا للقداسة وهكذا شعر الشعب بالضياع الروحي وبدأ يبحث عن إله واحد يسمع ويخلّص

2-فكرة الإله الواحد في ضمير المصريين

رغم تعدد الآلهة كانت في قلب الديانة المصرية بذور إيمان بوحدانية الله، فقد تحدثت بعض النصوص القديمة عن (الإله الخفي) الذي لا يُرى ولكنه مصدر كل حياة، كما حاول الملك إخناتون في القرن الرابع عشر قبل الميلاد أن يعلن عبادة الإله الواحد آتون ، وإن فشلت محاولته سياسيًا إلا أنها تركت أثرًا روحيًا عميقًا في الوجدان المصري هذا الميل نحو التوحيد ظل حيًّا في النفوس حتى جاء زمن الإنجيل.

3-الإيمان بالقيامة والحياة الأبدية

من أبرز سمات الفكر الديني المصري القديم الإيمان بالحياة بعد الموت، كانوا يؤمنون أن الروح تعود بعد الموت وتحيا في عالم آخر، ولذلك اهتموا بالتحنيط وبناء المقابر والنصوص الجنائزية مثل كتاب الموتى

لكن هذا الرجاء لم يكن مؤسسًا على وحي إلهي بل على رموز وأساطير مثل قصة أوزوريس، لذلك عندما سمع المصريون من مارمرقس عن قيامة المسيح الحقيقية من بين الأموات، وجدوا فيها تحقيقًا لما كانوا يؤمنون به منذ القدم ولكن بصورة إلهية واقعية

ثانيًا: التمهيد الفكري (انفتاح العقول المصرية على الفلسفة والبحث عن الحقيقة)

1-تأثير الفلسفة اليونانية في الإسكندرية

بعد الغزو المقدوني وتأسيس مدينة الإسكندرية، أصبحت مصر مركزًا للفكر والفلسفة والعلم في العالم القديم اجتمع فيها فلاسفة من مدارس متعددة مثل أفلاطونية، أرسطية، رواقية ، يناقشون قضايا الوجود والخلق والروح

بدأ العقل المصري المتأمل بطبيعته يتفاعل مع هذه الفلسفات ويبحث عن المعنى الحقيقي للحياة والغاية من الوجود، هذا البحث العقلي كان تهيئة فكرية لقبول الحق الإلهي المعلن في المسيح

2-وجود الجالية اليهودية والترجمة السبعينية

في الإسكندرية وُجدت جالية يهودية ضخمة كانت تؤمن بإله واحد خالق الكون، وتنتظر مجيء المخلّص (المسيا)، هؤلاء اليهود ترجموا أسفار العهد القديم إلى اليونانية فيما يُعرف بالترجمة السبعينية، هذه الترجمة جعلت كلمة الله متاحة للعالم كله بلغته الثقافية السائدة

وبذلك دخل الفكر التوحيدي العبري إلى الحياة الفكرية المصرية واليونانية، فتعرف كثير من المثقفين على فكرة الإله الواحد العادل والمحب، هذا الوعي الجديد مهّد الطريق لفهم رسالة الإنجيل عندما جاء مارمرقس

3-فلسفة (اللوغوس) ومفهوم الكلمة الإلهية

في القرنين الأول قبل الميلاد والأول الميلادي، ازدهرت في الإسكندرية مدرسة فلسفية حاولت التوفيق بين الفلسفة اليونانية والإيمان اليهودي، كان أبرز ممثليها فيلو الإسكندري الذي استخدم مفهوم (اللوغوس) (الكلمة) ليشرح علاقة الله بالعالم

كان هذا التعبير مألوفًا للفكر السكندري بفضل تلك الفلسفة السابقة، لذلك عندما بشر مارمرقس بالمسيح (الكلمة المتجسد) كان الفكر المصري واليوناني قد أُعد مسبقًا لفهم هذا الإعلان الإلهي

ثالثًا: الظروف السياسية والاجتماعية المساعدة

في عهد الاحتلال الروماني كانت مصر تعاني من الظلم والضرائب والفساد الإداري، عاش الشعب حالة من اليأس وفقدان العدالة، هذا الواقع المرير خلق توقًا عميقًا للخلاص الحقيقي، لم يعد الناس يبحثون عن حاكم عادل بل عن إله مخلّص

لذلك عندما جاء مارمرقس برسالة الإنجيل التي تعلن أن الخلاص ليس من قيصر بل من المسيح، تجاوب المصريون بفرح شديد لأنهم وجدوا فيها رجاءً جديدًا ومعنى لحياتهم المرهقة

رابعًا: خلاصات التمهيد الإلهي

.التمهيد الديني: الإيمان القديم بالحياة بعد الموت والإله الواحد الخفي

.التمهيد الفلسفي: بحث العقل المصري واليوناني عن أصل الكون والحقيقة المطلقة

.التمهيد الكتابي: وجود اليهود والترجمة السبعينية التي نشرت معرفة الله الواحد

.التمهيد الاجتماعي: معاناة الشعب من الظلم واشتياقه للخلاص والسلام الداخلي

خامسًا: مجيء مارمرقس كاستجابة إلهية

حين دخل مارمرقس الإسكندرية حوالي سنة 61 ميلادية، كانت كل هذه العوامل قد بلغت ذروتها، كان الشعب متعبًا روحيًا وفكريًا لكنه مستعد لتلقي النور، فكانت كرازة مارمرقس تحقيقًا لوعد الله بأن يُشرق نور الحق على الأمم

ومن هناك انطلقت المسيحية بقوة، لتجعل من مصر مركزًا للإيمان والتعليم والدفاع عن العقيدة في القرون التالية

التمهيد الروحي والفكري لمجيء مارمرقس إلى مصر كان عملًا إلهيًا متدرجًا عبر التاريخ. استخدم الله الفلسفة، والسياسة، والدين، وحتى الألم البشري ليُعدّ قلوب المصريين لاستقبال نوره، وعندما جاء الإنجيل أخيرًا، لم يكن غريبًا أن يقبله المصريون بفرح لأنهم أدركوا أن المسيح هو الجواب لكل أسئلتهم الروحية والعقلية والإنسانية

كيف ساهم الفكر الفلسفي في الإسكندرية في فهم رسالة الإنجيل؟

كان للفكر الفلسفي الذي ازدهر في الإسكندرية قبل وأثناء دخول المسيحية أثرٌ بالغ في تهيئة العقول لفهم رسالة الإنجيل. فالفلسفة لم تكن في حد ذاتها طريقًا إلى الخلاص، لكنها هيأت الإنسان فكريًا وروحيًا لاستقبال الحق الإلهي المعلن في شخص يسوع المسيح، وقد استخدم الله هذا المناخ العقلي الغني ليُظهر أن الإنجيل لا يتناقض مع العقل، بل يُكمّله ويُعطيه معناه الأسمى

أولًا: الإسكندرية مركز الفكر والعقل في العالم القديم

في القرن الثالث قبل الميلاد، صارت الإسكندرية أعظم مركز علمي وفلسفي في العالم، اجتمع فيها علماء من كل الأمم، وازدهرت فيها مدارس الفلسفة اليونانية مثل الأفلاطونية والأرسطية والرواقية، كانت المدينة تمثل بوتقة فكرية انصهرت فيها الثقافات المصرية واليونانية واليهودية

هذا الانفتاح الفكري جعل سكان الإسكندرية أكثر استعدادًا لسماع مفاهيم جديدة عن الله والخلق والخلاص. فحين جاء مارمرقس بالإنجيل، وجد بيئة عقلانية تبحث عن الحقيقة المطلقة، لا عن الأساطير

ثانيًا: الفلسفة اليونانية والبحث عن الله

كان الفلاسفة اليونانيون يبحثون منذ قرون عن العلة الأولى أو الإله الكامل الذي وراء الكون، فأفلاطون تحدث عن (العالم المثالي) الذي تنبع منه كل الكائنات، وأرسطو وصف الله بأنه (المحرّك الأول) الذي لا يتحرك لكنه سبب كل حركة، هذه المفاهيم الفلسفية ساعدت الناس على إدراك فكرة وجود إله واحد سامٍ فوق المادة والزمن

وهكذا عندما أعلن الإنجيل أن هناك إلهًا واحدًا خالقًا لكل شيء لم يكن هذا غريبًا على الفكر السكندري، بل وجد فيه تحقيقًا لما كان الفلاسفة يتطلعون إليه دون أن يعرفونه

ثالثًا: مفهوم (اللوغوس) (الكلمة) كجسر فكري بين الفلسفة والإيمان

أحد أعظم إسهامات الفكر السكندري هو تطوير مفهوم اللوغوس أي الكلمة أو العقل الإلهي، هذا المفهوم ظهر في كتابات فيلو الإسكندري (حوالي 20 ق.م – 50 م)، وهو فيلسوف يهودي حاول التوفيق بين التوراة والفلسفة اليونانية، قال فيلو إن اللوغوس هو وسيط بين الله والعالم، وهو الذي به خُلق كل شيء

وهكذا فهم المثقفون في الإسكندرية فورًا أن المسيح هو اللوغوس المتجسد ، كلمة الله الحي الذي صار إنسانًا ليخلّص البشرية، لقد قدّم الإنجيل ما كانت الفلسفة تبحث عنه منذ قرون الكلمة التي ليست فكرة بل شخص حيّ

رابعًا: المدرسة الفلسفية واللاهوتية في الإسكندرية

منذ تأسيس الكنيسة على يد مارمرقس، ظهرت في الإسكندرية مدرسة لاهوتية عظيمة استخدمت أدوات الفلسفة لخدمة الإيمان، كان هدفها تفسير الكتاب المقدس بأسلوب عقلاني ومنهجي لمخاطبة العقول المتأثرة بالفكر الهيليني

من أبرز أساتذتها

كليمنضس السكندري: علّم أن الإيمان لا يناقض العقل، بل يعلو عليه ويكمّله، ورأى أن الفلسفة كانت تهيئة إلهية لليونانيين كما كان الناموس تهيئة لليهود

أوريجانوس: استخدم المنهج الرمزي لتفسير الكتاب المقدس، وجمع بين المعرفة الروحية والعقلية في فهم الحق الإلهي

بهذا الشكل تحولت الإسكندرية إلى مركز عالمي للفكر المسيحي، يجمع بين الإيمان والعقل

خامسًا: الفلسفة كممهّد للإنجيل لا كبديل عنه

الفكر الفلسفي في الإسكندرية لم يكن مصدر الخلاص، لكنه مهّد الطريق لفهمه، فالفلسفة علّمت الإنسان أن يبحث عن الحقيقة العليا، لكن الإنجيل كشف له أن هذه الحقيقة ليست فكرة عقلية بل شخص الله المتجسد في يسوع المسيح

بعبارة أخرى، ما حاول العقل الوصول إليه عبر التأمل، أعلنه الله مباشرة بالوحي

سادسًا: النتائج الفكرية والروحية لهذا التفاعل

من خلال الفلسفة السكندرية

تعلّم الناس أن يستخدموا عقولهم لفهم الإيمان لا لرفضه

.تحولت المفاهيم المجردة إلى حقائق روحية حية في المسيح

.صار الإيمان المسيحي قادرًا على مخاطبة المثقفين والفلاسفة بلغتهم الفكرية دون أن يفقد جوهره الروحي

الخلاصة

لقد ساهم الفكر الفلسفي في الإسكندرية مساهمة عظيمة في فهم رسالة الإنجيل لأنه هيأ العقول لاستقبال إعلان الله الكامل، فالفلسفة بحثت عن الحقيقة بالعقل، لكن الإنجيل كشفها بالنعمة، وفي الإسكندرية التقت الحكمة البشرية بالحكمة الإلهية، فصار المسيح هو الجواب النهائي لكل تساؤلات الإنسان عن الوجود والمعنى والخلاص

لماذا اختار الله مصر لتكون مركزًا للمسيحية الأولى؟

اختيار الله لمصر لم يكن صدفة ولا قرارًا بشريًا، بل هو تدبير إلهي عميق ممتد منذ فجر التاريخ، فقد كانت مصر دائمًا أرض اللجوء، وأرض الحماية، وأرض الإعلان الإلهي، في كل مراحل التاريخ المقدس، استخدم الله مصر كأداة لتحقيق مقاصده، حتى صارت بحق أرضًا مباركة بنبوة سماوية وردت على لسان إشعياء النبي

مبارك شعبي مصر

هذا الإعلان النبوي يشرح بوضوح أن لمصر مكانة فريدة في خطة الله للخلاص، وأنها لم تكن مجرد محطة جغرافية بل مركزًا روحيًا عالميًا لانتشار الإيمان المسيحي

أولًا: مصر في خطة الله منذ العهد القديم

1-مصر أرض الحماية الإلهية

منذ أيام إبراهيم ظهرت مصر كملجأ في وقت الضيق، فعندما حدث جوع في كنعان، نزل إبراهيم إلى مصر ليجد طعامًا، ثم جاء يوسف الصديق ليصبح أداة خلاص ليس فقط لأسرته بل للعالم كله من المجاعة

وهكذا استخدم الله مصر لتكون ملجأً للأبرار في وقت الشدائد، مما جعلها أرض العناية الإلهية منذ البداية

2-مصر أرض التجربة والفداء

في نفس الوقت كانت مصر أيضًا رمزًا للعالم المادي الذي يحتاج إلى الخلاص، فالشعب العبراني عاش فيها عبودية قاسية حتى أخرجه الله على يد موسى لذلك صارت مصر رمزًا مزدوجًا مكان حماية ومكان تحرر في آنٍ واحد.

بهذا المعنى كانت مصر صورة مسبقة لعمل المسيح الذي جاء ليُحرر البشرية من عبودية الخطية، كما حرر الله شعبه من عبودية فرعون

3-مجيء العائلة المقدسة إلى مصر

أعظم تكريم إلهي لمصر كان عندما هربت إليها العائلة المقدسة ، الطفل يسوع وأمه العذراء مريم ويوسف النجار هربًا من بطش هيرودس، بهذا الحدث تحقق النبوة (من مصر دعوت ابني)

لم تلجأ العائلة المقدسة إلى أي بلد آخر سوى مصر، هذا الاختيار الإلهي منحها قدسية خاصة، إذ وطئت أقدام المسيح أرضها، فصارت أرض خلاص وبركة أبدية

ثانيًا: مصر مركز الفكر والعلم المؤهل لحمل الرسالة

في زمن مجيء مارمرقس كانت الإسكندرية عاصمة الفكر والعلم في العالم القديم، اجتمع فيها العلماء والفلاسفة من كل الأمم، وكانت تضم المكتبة الكبرى ومدرسة الفلسفة الأشهر، هذا المناخ الفكري كان إعدادًا إلهيًا لتكون مصر قادرة على استقبال الإنجيل بعقل واعٍ وفكر ناضج

وهكذا استخدم الله العقل المصري واليوناني في خدمة الحق الإلهي، فصارت الإسكندرية مركز التقاء بين الحكمة البشرية والوحي الإلهي

ثالثًا: الجاهزية الروحية للشعب المصري

المصريون بطبيعتهم شعب متدين محب للروحانيات، عاشوا آلاف السنين يبحثون عن الحياة الأبدية وعن الإله الخفي وراء الكون، هذا العمق الروحي جعلهم أكثر استعدادًا لقبول رسالة المسيح التي تُعلن عن الإله الواحد الذي أحب الإنسان حتى بذل نفسه لأجله

وعندما جاء مارمرقس الرسول مبشرًا بالإنجيل ، وجد قلوب المصريين عطشى للحق، لذلك انتشرت المسيحية بسرعة وقوة في أنحاء البلاد كلها

رابعًا: الموقع الجغرافي الفريد لمصر

مصر تقع في قلب العالم القديم بين آسيا وإفريقيا وأوروبا ، فهي جسر يربط القارات الثلاث، هذا الموقع الاستراتيجي جعلها مركزًا مثاليًا لنشر الإيمان إلى كل الاتجاهات

من الإسكندرية انطلقت البعثات التبشيرية إلى النوبة وليبيا والحبشة وسائر إفريقيا، فصارت الكنيسة القبطية منارة إنجيلية للقارات المجاورة

خامسًا: قوة الكنيسة المصرية وشهادتها عبر التاريخ

بعد استشهاد مارمرقس، أصبحت الكنيسة القبطية كنيسة الشهداء والمعترفين، واجهت اضطهادات شديدة من الرومان لكنها ظلت ثابتة على الإيمان، شهد العالم كله أن المسيحية في مصر لم تُفرض بالسيف أو السلطة، بل انتشرت بالمحبة والشهادة والدم

سادسًا: مدرسة الإسكندرية اللاهوتية ودورها العالمي

أسس مارمرقس أول مدرسة لاهوتية في الإسكندرية لتعليم الإيمان وتفسير الكتاب المقدس، أصبحت هذه المدرسة منارة للفكر المسيحي العالمي، وخرجت منها شخصيات عظيمة مثل كليمنضس السكندري وأوريجانوس وأثناسيوس الرسولي

ومن خلال هذه المدرسة ساهمت مصر في تشكيل العقيدة المسيحية الجامعة والدفاع عنها ضد الهرطقات والفلسفات الزائفة

سابعًا: البركة النبوية الخاصة بمصر

اختيار الله لمصر له جذور نبوية واضحة في الكتاب المقدس

في ذلك اليوم يكون مذبح للرب في وسط أرض مصر، وعمود للرب عند تخمها (إش 19: 19)

فيعرف الرب في مصر، ويعرف المصريون الرب في ذلك اليوم، ويقدمون ذبيحة وتقدمة، وينذرون للرب نذرا " ويوفون به. (إش 19: 21).

تحققت هذه النبوة حرفيًا بعد دخول المسيحية إلى مصر، فامتلأت البلاد بالكنائس والأديرة التي أصبحت مذابح حقيقية للرب يسوع المسيح، وعبد المصريون الله بالروح والحق كما وعد الكتاب

اختار الله مصر لتكون مركزًا للمسيحية الأولى لأنها جمعت كل عناصر التهيئة الإلهية

.روحيًا: عطش الإنسان المصري للحقيقة والإله الواحد

.فكريًا: وجود مركز فلسفي وعلمي عالمي في الإسكندرية

.جغرافيًا: موقعها الرابط بين القارات والشعوب

.نبويًا: تحقيق نبوءة إشعياء مبارك شعبي مصر

.تاريخيًا: كونها أرض اللجوء للعائلة المقدسة ومكان حماية المخلّص

وهكذا صارت مصر قلب الإيمان المسيحي في الشرق، ومنارة نور الإنجيل التي أضاءت للعالم كله حتى اليوم

لماذا تحولت مصر إلى أرض الشهداء بعد دخول المسيحية؟

تحولت مصر إلى أرض الشهداء ليس بسبب المصادفة التاريخية، بل لأن إيمان المصريين بالمسيح كان حقيقيًا وعميقًا لدرجة أنهم فضّلوا الموت على إنكار إيمانهم، فالمسيحية دخلت مصر بالحب والبشارة، لكنها انتشرت وتثبّتت بالدم والشهادة، كانت دماء الشهداء هي البذرة التي أنبتت الكنيسة القبطية العريقة، حتى لقبت عبر التاريخ بكنيسة الشهداء

أولًا: الخلفية التاريخية للاضطهادات في مصر

1–الصدام بين الإيمان المسيحي والسلطة الرومانية

منذ دخول مارمرقس الرسول إلى الإسكندرية حوالي سنة 61 م، بدأ الإيمان المسيحي ينتشر بسرعة بين المصريين، لكن هذا الانتشار أثار غضب السلطات الرومانية الوثنية التي كانت ترى في المسيحية خطرًا سياسيًا ودينيًا

الرومان كانوا يفرضون عبادة الإمبراطور كإله، وكان على كل مواطن أن يقدم البخور أمام تمثال القيصر إعلانًا للولاء، أما المسيحيون فرفضوا ذلك تمامًا لأنهم يؤمنون بإله واحد هو الرب يسوع المسيح، هذا الرفض جعلهم متهمين بالعصيان والخيانة، فبدأت موجات من الاضطهاد العنيف ضدهم

2-الاستشهاد الأول لمارمرقس نفسه

كان مارمرقس الرسول أول شهيد في مصر، فقد قُبض عليه في الإسكندرية أثناء الاحتفال بعيد الإله سيرابيس سنة 68 م، وجرّه الوثنيون في شوارع المدينة حتى مات، وهكذا صارت دماؤه بذار الكنيسة المصرية الأولى

ومنذ ذلك اليوم صار طريق الشهادة علامة الإيمان الحقيقي في أرض مصر

ثانيًا: أسباب الاضطهادات الرومانية للمسيحيين

رفض عبادة الإمبراطور: المسيحيون رفضوا تقديم الذبائح للأباطرة والآلهة، فاعتبرهم الرومان أعداء للدولة

انتشار الإيمان بسرعة: ازدياد عدد المؤمنين بالمسيح في كل طبقات المجتمع أثار خوف السلطات من فقدان السيطرة

القيم الجديدة للمسيحية: التعليم عن المساواة والمحبة والقداسة كان يناقض الفساد الأخلاقي والطبقي السائد في الإمبراطورية

الغيرة الدينية للكهنة الوثنيين: فقدوا نفوذهم وثرواتهم عندما ترك الناس عبادة الأصنام

ثالثًا: عصور الاضطهاد الكبرى

1-اضطهاد دقلديانوس (284–305 م)

يُعتبر هذا العصر هو أشد فترات الاضطهاد في تاريخ الكنيسة المصرية، أصدر الإمبراطور دقلديانوس أوامر بهدم الكنائس، وإحراق الكتب المقدسة، وقتل المؤمنين الذين يرفضون إنكار المسيح، امتلأت السجون بالمسيحيين، وسالت الدماء في كل المدن والقرى

كان عدد الشهداء ضخمًا لدرجة أن الكنيسة القبطية جعلت بداية تقويمها الرسمي تُحسب من سنة اعتلاء دقلديانوس العرش (284 م) وتُسمى حتى اليوم تقويم الشهداء

2-اضطهادات ما قبل دقلديانوس

تعرض المسيحيون في مصر أيضًا لاضطهادات سابقة في عهد نيرون ودوميتيان وتراجان وسبتيموس سيفيروس وديكيوس وفاليريان، لكنهم ظلوا ثابتين، مؤمنين أن موتهم هو شهادة للحق وليس هزيمة

3-اضطهادات محلية بعد المسيحية الرسمية

حتى بعد إعلان الإمبراطور قسطنطين حرية الديانة المسيحية سنة 313 م، استمرت فترات اضطهاد داخلي بسبب الانقسامات العقائدية بين الأرثوذكس والأريوسيين، وكان المصريون الأرثوذكس دائمًا عرضة للاضطهاد بسبب تمسكهم بالإيمان المستقيم

رابعًا: الروح المصرية وحب الاستشهاد

الإيمان المسيحي وجد في المصريين أرضًا خصبة لأنهم بطبيعتهم شعب روحي عميق التأمل في الحياة الأبدية منذ أيام الفراعنة،كانوا يؤمنون أن الموت ليس نهاية بل عبور إلى حياة أخرى، لذلك عندما عرفوا المسيح القائم من الموت، أحبّوا الاستشهاد كأسمى تعبير عن الاتحاد به

لم يرَ الشهداء الموت كعقوبة بل كفوز أبدي، كانوا يدخلون ساحات التعذيب بترانيم التسبيح والفرح لأنهم علموا أنهم ذاهبون إلى الحياة مع المسيح

خامسًا: أمثلة من شهداء مصر الأبرار

.القديسة دميانة: التي رفضت عبادة الأوثان وثبتت على إيمانها حتى الموت مع أربعين عذراء

القديس جرجس المزاحم، والقديس فيلكس، والقديس يوليوس الأقفهصي الذي دوّن سير الشهداء وجعل سيرتهم خالدة

القديس مينا العجائبي: أحد أشهر شهداء مصر الذي صار اسمه مرتبطًا بالمعجزات حتى اليوم

سادسًا: تأثير الشهادة في انتشار الإيمان

كلما زاد الاضطهاد زاد عدد المؤمنين، فدم الشهداء صار كما قال ترتليانوس (بذار الكنيسة) رأى الناس قوة إيمان لا تهزم بالموت ولا بالتعذيب، فآمنوا بالمسيح الإله الحي الذي يمنح هذه القوة لمحبيه

وهكذا تحولت مصر من أرض الوثنية إلى أرض القداسة، ومن أرض الخوف إلى أرض الرجاء والحياة الأبدية

سابعًا: معنى الاستشهاد في اللاهوت المسيحي القبطي

الاستشهاد في الإيمان القبطي ليس نهاية مأساوية بل اتحاد كامل بالمسيح المصلوب والقائم، إنه شهادة للحقيقة أمام العالم بأن الحياة الحقيقية ليست على الأرض بل في ملكوت الله، لذلك لم يكن الشهيد مجرد ضحية بل شاهد حيّ للحق الإلهي

فقد تحولت مصر إلى أرض الشهداء لان

.المصريين أحبوا المسيح أكثر من الحياة الزمنية

.الإيمان انتشر رغم القهر والدم

.الله استخدم شهادتهم لتثبيت الكنيسة ونشر الإنجيل

.الروح المصرية العميقة جعلت الموت طريقًا للحياة الأبدية

وهكذا صارت مصر مشعل نور للعالم كله، تشهد بأن الحق لا يُقتل وأن الإيمان الحيّ لا يُخمد بالنار أو السيف إنها الأرض التي سُقيت بدماء القديسين فأثمرت قداسة وخلودًا

دور الشهداء في ترسيخ هوية الكنيسة القبطية

الكنيسة القبطية الأرثوذكسية تُعرف في التاريخ الكنسي العالمي بأنها كنيسة الشهداء، لم يكن هذا اللقب مجرد وصف تاريخي، بل هو تعبير عن هوية روحية ولاهوتية تشكلت عبر قرون من الألم والإيمان والثبات، فدماء الشهداء لم تكن فقط ثمناً للإيمان، بل كانت الأساس الذي بُنيت عليه هوية الكنيسة المصرية من حيث الإيمان، والعبادة، والتعليم، والروحانية

أولًا: الشهادة كجذر الهوية الروحية

منذ استشهاد مارمرقس الرسول مؤسس الكنيسة القبطية ارتبط الإيمان في مصر بفكرة الثبات حتى الموت فالمسيحي المصري لم يفهم الإيمان كعقيدة نظرية، بل كحياة تُعاش في مواجهة العالم والموت من أجل المسيح

هذه الروح جعلت الكنيسة القبطية تتميز بعمقها الروحي والتزامها الكامل بالإنجيل، فالشهادة لم تكن عمل بطولة فردية، بل كانت أسلوب حياة جماعي يمثل معنى الاتحاد بالمسيح المصلوب

ثانيًا: دماء الشهداء كأساس للكنيسة القبطية

قال ترتليانوس في القرن الثالث الميلادي (دم الشهداء هو بذار الكنيسة) وقد تحقق هذا القول في مصر بشكل فريد، فكل موجة اضطهاد كانت تُنبت إيمانًا أقوى وعددًا أكبر من المؤمنين

كان استشهاد الآلاف في عهد دقلديانوس نقطة تحول جعلت الكنيسة القبطية تُحدد تقويمها الرسمي ابتداءً من سنة 284 م، وتسميه (تقويم الشهداء) هذا القرار لم يكن مجرد تذكار تاريخي بل إعلان أن هوية الكنيسة مرتبطة بالشهادة ارتباطًا جوهريًا

فكما يبدأ العام القبطي بذكرى الدم، كذلك تبدأ حياة كل مسيحي قبطي بمعمودية تُشير إلى الموت مع المسيح والقيامة معه

ثالثًا: الشهداء كمثال روحي وقدوة عملية

سير الشهداء لم تكن قصصًا تُروى بل دروسًا تُعاش، ففي كل جيل كان المؤمنون يتعلمون من الشهداء معنى الطاعة الكاملة لله، والمحبة الحقيقية التي لا تخاف الموت، أسماء مثل القديس مينا العجائبي، والقديسة دميانة، والقديس جورجيوس، والقديس يوليوس الأقفهصي أصبحت رموزًا حية للإيمان الراسخ

كان الأطفال يحفظون سيرهم، والكنائس تحتفل بتذكاراتهم، والمؤمنون يستلهمون من دمائهم القوة على مواجهة التجارب اليومية، فالشهادة صارت في الوعي القبطي لغة روحية تعبّر عن الولاء الكامل للمسيح

رابعًا: الشهداء وتشكيل الوجدان القبطي الجماعي

تاريخ الاضطهادات الطويل في مصر جعل الكنيسة تتكوّن كجماعة متماسكة بالروح لا بالسلطة، فبينما انهارت إمبراطوريات ظلت الكنيسة القبطية ثابتة لأنها تأسست على الإيمان لا على القوة الزمنية

أصبحت حياة الشهداء هي ذاكرة الأمة الروحية، فكل كنيسة وكل دير يحمل اسم شهيد أو قديس، حتى اللغة القبطية احتفظت بمصطلحات ليتورجية تُذكّر بالموت والقيامة والرجاء الأبدي، وهكذا صار الاستشهاد جزءًا من الهوية الثقافية والدينية للمصريين المسيحيين

خامسًا: اللاهوت القبطي وفهم معنى الاستشهاد

المسيح قدّم نفسه ذبيحة حب على الصليب، والشهيد يشارك في هذه الذبيحة بإرادته، لذلك يُنظر إلى الشهيد لا كضحية بل ككاهن يقدم ذاته لله حبًا وطاعة

هذا المفهوم جعل الكنيسة القبطية تنظر إلى الموت نظرة مختلفة؛ فهو ليس نهاية بل عبور إلى الحياة الأبدية لذلك قال القديس أثناسيوس الرسولي الرب يسوع ألغى الموت تمامًا وجعله كالنوم لأولئك الذين يؤمنون به

سادسًا: أثر الشهداء في العبادة والطقوس الكنسية

الطقوس القبطية مليئة بذكرى الشهداء، ففي كل قداس تُتلى أسماء القديسين والشهداء في المجمع الكنسي ليبقى حضورهم حيًا في وعي الجماعة، كما تُقام الأعياد السنوية لتذكار استشهادهم، وتُبنى الكنائس على أجسادهم لتكون المذابح امتدادًا لذبيحتهم وهكذا أصبحت الكنيسة القبطية ممزوجة بروح الشهادة صلاة مملوءة رجاءً وفرحًا رغم الألم

سابعًا: الشهادة كضمان لوحدة الإيمان القبطي

في عصور الانقسامات العقائدية والصراعات السياسية، ظلت الكنيسة القبطية متمسكة بإيمانها المستقيم لأن جذورها مغروسة في دماء الشهداء الذين لم يساوموا على الحق، هذا الثبات جعلها صامدة أمام الهرطقات والضغوط الإمبراطورية طوال القرون ، فهوية الكنيسة لم تُبنَ على الجدال اللاهوتي فقط، بل على دماء الذين أثبتوا الإيمان بالفعل لا بالكلام

الشهداء هم العمود الفقري لهوية الكنيسة القبطية

.بدمائهم تأسست الكنيسة وثبتت في وجه الاضطهاد

.بسيرتهم تشكلت روح العبادة القائمة على الحب والتسليم

.بشجاعتهم صارت الكنيسة رمزًا للثبات والرجاء الأبدي

.و بإيمانهم نقلوا رسالة المسيح للأجيال التالية حتى يومنا هذا

لهذا قال القديس كبريانوس لا يمكن أن تكون هناك كنيسة بدون شهداء، لأن دمهم هو الذي يقدّسها ويجعلها حيّة

ومن هنا نرى أن مصر لم تُدعَ (أرض الشهداء) مجازًا، بل حقيقةً تاريخية وروحية ، فهي الأرض التي سُقيت بدم القديسين فأثمرت إيمانًا لا يزول

حين نتأمل في مسيرة مصر عبر التاريخ، نكتشف أن يد الله كانت تعمل فيها منذ البدء، تُهيئها خطوة بخطوة لتكون منارة للإيمان ونبعًا للقداسة، فالأرض التي عرفت عبادة الآلهة الكثيرة صارت أول من أعلن وحدانية الله الحي في المسيح يسوع، والشعب الذي كان يبحث عن الخلود في المقابر وجد القيامة الحقيقية في نور الإنجيل، والدماء التي سُفكت ظلمًا تحولت إلى بذار حياة أبدية

لم تكن المسيحية في مصر مجرد ديانة جديدة حلّت محل القديمة، بل كانت تحقيقًا إلهيًا لأعمق أشواق الإنسان المصري إلى الله الواحد، العادل والمحب، لقد جمع الله بين الفكر والعقيدة، وبين الفلسفة والإيمان، وبين الألم والمجد، ليصنع من مصر نموذجًا فريدًا للكنيسة الحيّة التي تثبت رغم العواصف

واليوم بعد قرون طويلة من دخول مارمرقس إلى الإسكندرية، لا تزال الكنيسة القبطية الأرثوذكسية تحمل ذات الرسالة رسالة الشهادة للمسيح بالحب والثبات والرجاء، فهي الكنيسة التي وُلدت من رحم الألم لكنها لم تنكسر، والتي شربت من كأس الشهادة لكنها ظلت تنشد التسبيح

إن كل فصل من فصول هذا الكتاب يذكّرنا بأن الله لا يترك نفسه بلا شاهد، وأنه يستخدم التاريخ بكل أحداثه الملوك والكهنة والفلاسفة والشهداء ليعلن مجده ويقود البشرية إلى الحق، وهكذا تظل مصر شاهدة على أن الحق الإلهي أقوى من الزمان والظلم والموت، وأن نور الإنجيل الذي أضاء فيها لا يمكن أن يُطفأ

فلنرفع قلوبنا شاكرين الله الذي بارك هذه الأرض المقدسة وقال عنها (مبارك شعبي مصر) ولتكن شهادتنا اليوم امتدادًا لشهادة الآباء الأوائل ، لا بدمائنا فقط، بل بحياتنا اليومية المملوءة محبة وقداسة وصدقًا

هكذا نختم صفحات هذا الكتاب بصلوات الشهداء والقديسين الذين عاشوا وماتوا لأجل الحق، وبثقة أن الرسالة التي بدأت في بيت صغير بالإسكندرية ما زالت حيّة إلى اليوم، وستبقى حتى مجيء الرب في مجده

كن أمينا إلى الموت فسأعطيك إكليل الحياة (رؤ 2: 10)